المراكز الحضارية في القارة الإفريقية ، ودورها التعليمي والثقافي في بلورة الشخصية الإفريقية

إعداد

أ/ فادية عبد العزيز إبراهيم القطعاني

مقدمة

إن الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية يعود زمنها إلى فترة ما قبل الإسلام ، إنها قديمة ، وهذا ما تدلل عليه النقوش الأثرية ، فقد تنقل العرب في أفريقيا ، وتنقل الأفارقة في بلاد العرب ، واختلطوا وتزاوجوا ، وتبادلوا الأفكار ، وتأثرت ثقافاتهم بعضها بالبعض الآخر ، فلم تقف البحار أو الصحاري حائلًا دون ذلك الاتصال .

وبعد دخول الإسلام إلى القارة الأفريقية وانتشاره فيها ، أصبحت أفريقيا مركزًا مهمًا من مراكز الحضارة الإسلامية ، وأصبحت اللغة العربية لغة الفكر والثقافة في أفريقيا ، وعبرت المؤثرات العربية وانتشرت في شرق أفريقيا ووسط القارة ، وحملها العرب للتقدم غربًا حتى أعماق الكونغو ، وعبر الصحراء الأفريقية ، لتترك آثارها الحضارية ، تتزاوج وتختلط بالإنسان الأفريقي ، اجتماعيًا وعقائديًا وثقافيًا وحضاريًا واقتصاديًا .

وهكذا ، بفضل انتشار الإسلام ، وضعت أفريقيا على الخريطة الحضارية والثقافية في العالم ، بقيام مراكز حضارية إسلامية فيها ، منها ـ على السبيل ـ تمبكتو وجني وكانو وغيرها .

وقد كانت هذه المراكز العلمية منارات يهتدي بنورها كل متطلع إلى العلم والمعرفة ، فقد فتح الإسلام أمام الإنسان الأفريقي آفاقًا جديدة ، وبانتشاره حدثت ولادة روحية جديدة للثقافة الأفريقية ، أحدثت تغييرات جذرية في نمط حياة الإنسان الأفريقي ، فقد تدخل الإسلام ـ بدون شك ـ في صياغة النسق الفكري عند الأفارقة ، وعملت مجموعة الخصائص والسمات التي اختص بها الإسلام على إعادة تشكيل الشخصية الأفريقية وبلورتها ، وفق ما تضمنته الثقافة العربية الإسلامية ، حيث منظومة القيم فيها ثابتة مستوحاة من الوحي الكريم ، الذي يكرم الإنسان لأنه إنسان ، والذي يأمر بالشورى والعدل كأسس للحكم ، ويرفض الظلم ، وينادي بالحرية والمساواة والسماحة الفكرية والاجتماعية وبالمسؤولية في العمل ، بوصفها أسس قيام الجماعة البشرية .

ومن هنا ، فإن هذه الدراسة تهدف إلى إبراز تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية في الإنسان الأفريقي ، من خلال الدور التعليمي والثقافي للمراكز الحضارية في القارة الأفريقية ، حيث سيتم تناول موضوع المراكز الحضارية في القارة الأفريقية ، ودورها التعليمي والثقافي في بلورة الشخصية الأفريقية ، من خلال النقاط التالية :

١ـ لمحة تاريخية عن علاقة العرب بأفريقيا .

٢ـ المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية .

٣ـ تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية في الشخصية الأفريقية .

أولا : لمحة تاريخية عن علاقة العرب بأفريقيا :

لا شك أن الترابط الجغرافي وحركة التواصل البشري بين العرب وأفريقيا تمتد جذورها في أعماق التاريخ ، فبالنظر إلى الخريطة الأفريقية من القرن الأفريقي شرقًا إلى نهر السنغال غربًا ، ومن البحر المتوسط شمالًا إلى أواسط أفريقيا جنوبًا ، لا نلحظ الفواصل الجغرافية ، أو الموانع الطبيعية العائقة للتواصل والتلاحم والتفاعل المشترك .

فالبحر الأحمر لم يكن ليحول بين العرب وشرق أفريقيا ، كما أن الصحراء لم تكن إلا عامل اتصال عبر العديد من الطرق التي كانت تتخلل القارة ، ذهابًا وإيابًا ، بين شمالها وجنوبها ، فالعلاقة بين العرب وأفريقيا تاريخيًا هي علاقة روابط تاريخية وحضارية ، وسأحاول في هذه النقطة أن أسلط الضوء بإيجاز على هذه العلاقة .

ارتبط العرب في الجزيرة العربية بعلاقة وثيقة مع البلاد الأفريقية المجاورة لهم ، سواء في الساحل الشرقي الأفريقي ، أو سواحل البحر الأحمر ، أو البلاد المتاخمة للصحراء الكبرى ، وقد تكونت هذه العلاقة منذ البداية على الود والتآخي ، فبدأت تجارية مصلحية متكافئة [١] .

وقد تم الاتصال بين العرب وسائر شرق أفريقيا عبر منطقتين ، حملتا المؤثرات العربية إلى شرق أفريقيا هما :

جنوب البحر الأحمر والخليج العربي ، وأسهم قرب المسافة بين شاطئ البحر الأحمر والشاطئ الأفريقي في المناطق الجنوبية ، عند باب المندب ، ومنذ

---

(١) صالح عبد السلام البغدادي ، اللغة العربية ودورها في الثقافة العربية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٢ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٣٣٣) .

عصور مبكرة ، في ربط هاتين المنطقتين ، وذلك باتخاذه معبرًا تدفقت من خلاله موجات الهجرات الأولى ، التي شكلت السكان في المنطقة ، ومما ضاعف من أهمية وعبقرية المكان العامل الاقتصادي المتمثل في المصالح التجارية المتبادلة بين شاطئ باب المندب الأفريقي والآسيوي ، حيث كان باب المندب يتحكم في عملية التبادل التجاري بين الشرق « الصين ، الهند ، فارس » ، وبين أفريقيا ، وكان من نتائج هذا الارتباط الاستراتيجي والتجاري بين شاطئ باب المندب ، أن ارتبطت مصالح الشعوب المطلة عليه سياسيًا واجتماعيًا ، وهو ما فسح المجال أمام سكان المنطقتين من جهة أخرى لتبادل المؤثرات الحضارية بينها [١] .

بيد أن حدود العلاقة بين العرب وأفريقيا لم تقف عند باب المندب ، بل امتدت إلى أجزاء أخرى ، حيث تمت اتصالات بين بلاد العرب وشرق أفريقيا عبر الخليج العربي ، تعود في تاريخها إلى حقب قديمة ، كما حددتها الأدلة الأثرية التي أرجعتها إلى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، كما قامت مملكة معين وحضر موت في ذلك الوقت ، بدور تجاري مهم بين الجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، وكانت التجارة في هذه المنطقة تعتمد على السلع التي تنتجها بلاد العرب ، إلى جانب السلع الأخرى التي تجمع من أفريقيا والشرق ، مما تطلب من معين وحضر موت القيام بدور مهم وفعال لتوسيع دائرة الاتصال بين هذه المناطق ، حتى تتجمع السلع لتجار البحر المتوسط .

وقد ترتب على هذا العمل المهم الحافل بالنشاط أن كان لكل من الطرفين

---

(١) أحمد إلياس حسين ، انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ، محاضرات الموسم الثقافي (١٩٧٩، ١٩٨٠) ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، ١٩٨٩ ، (ص٢٢٦) .

سفنه التجارية العاملة بين الخليج العربي والساحل الأفريقي [١] .

وفي هذا الإطار يمكن القول : إن المناخ ، علاوة على الموقع الجغرافي المؤثر ، كان عاملًا مساعدًا في تنمية علاقة العرب بأفريقيا ، وفي التواصل بين المنطقتين ، فقد لعبت الرياح الموسمية التي تهب في فصل الخريف في اتجاه جنوبي ـ غربي في دفع السفن من موانئ الهند والخليج العربي إلى جنوب شبه الجزيرة العربية ، ثم تواصل اتجاهها في دفع السفن إلى الجنوب الغربي ، على سواحل أفريقيا ، وفي فصل الربيع يتغير اتجاه الريح إلى الشمال ، فيمكن السفن من العودة على الطريق نفسها [٢] .

وهكذا ، مع انتظام حركة التجارة البحرية القائمة على الاستفادة من العوامل الجغرافية ، ومصادر السلع ، وبعد أن صارت الملاحة أمرًا معروفًا من البحر الأحمر ، إلى السواحل الأفريقية والهند ، في الألف الأخير قبل الميلاد ، توطدت الصلات ، وقويت الروابط بين السواحل العربية والأفريقية الشرقية .

وفي هذا السياق تشير بعض الدراسات إلى أن أقوى ارتباط للعرب بشرق أفريقيا تم في عهد دولة هوازن العربية ، من خلال الدور الذي قامت به في تعميق وتقوية الصلات التجارية على ذلك الساحل ، كما فعل الفينيقيون في البحر المتوسط ، ولعل ما تركته هذه الدولة يدل على عمق الأثر على تلك السواحل ، فقد عرفت سواحل الصومال وكينيا وتنزانيا قديمًا باسم « ساحل هوازن » أو « أزانيا » [٣] .

---

(١) المصدر السابق ، (ص٢٢٨) .

(٢) المصدر السابق ، الموضع السابق .

(٣) المصدر السابق ، (ص٢٢٩) .

نخلص مما سبق إلى أن سواحل شرق أفريقيا قد أطلت على السواحل العربية ، وتبادلت معها المصالح التجارية ، وقد كان للتجارة الأفريقية نصيب وافر أسهمت به في تجارة العالم القديم ، مما هيأ له التعرف على مختلف الثقافات القديمة .

أما عن علاقة العرب بغرب أفريقيا فلا يمكن الحديث عنها دون أن نعالج جغرافيتها ، وذلك لما لها من تأثيرات واضحة على تاريخها خلال العصور ، كما لا يمكن أن نتجاهل الدور المؤثر للصحراء الكبرى في سير هذا التاريخ ، أثناء الألف سنة الأخيرة على الأقل ، وذلك للعلاقة المتبادلة والمستمرة بين أهالي الصحراء الكبرى وشعب السودان الغربي .

تقع بلاد السودان الغربي في غربي أفريقيا ، وتطل على المحيط الأطلسي غربًا ، وخليج غينيا جنوبًا ، وتحدها الصحراء الكبرى من الشمال ، ومن الشرق خط يكاد يمر بالحدود الشرقية لنيجيريا ، وليس من اليسير تحديد الحدود الشمالية والشرقية لغرب أفريقيا تحديدًا دقيقًا بالمصطلحات الجغرافية التقليدية ، فليس هناك في الشرق أو في الشمال حواجز جغرافية طبيعية تعتبر علامات بارزة تحدد بوضوح اتساع الأقاليم التي تحتوي على أفريقيا الغربية ، ولم تكن الصحاري أو النهران الكبيران « النيجر والسنغال » اللذان يجريان بمحاذاة حافة الصحاري الجنوبية ، في أي يوم من الأيام لتمنع أو تعطل انتقال الشعوب المختلفة أو تعرقل تجارتها .

بالإضافة إلى ذلك فإن المتوغل في غرب أفريقيا ، من جهة الشمال ، يلاحظ تغيرًا جغرافيًا يطرأ أثناء الانتقال من الصحراء إلى الأماكن الآهلة بالسكان ، كما يشاهد أن بعض مناطق الصحراء ليست خالية تمامًا من السكان ، وأنه

ليس بشرقها حواجز جغرافية طبيعية حتى تصل إلى مستنقعات النيل الاستوائية ، أو المرتفعات الحبشية ، هذه الصورة الجغرافية العامة أثرت بشكل ملحوظ في تاريخ وحضارة هذه المنطقة عبر العصور [١] .

لقد أثبتت الدراسات الأثرية والتاريخية مدى الوحدة الثقافية وتأصلها وتجذرها بين سكان هذه المنطقة ، فنقوش ورسوم ما قبل التاريخ التي وجدت في كهوف وعلى صخور وفي وديان المنطقة الممتدة من البحر الأحمر شرقًا ، حتى المحيط الأطلسي غربًا ، أي من صعيد مصر والسودان حتى موريتانيا ومالي ، تؤكد تماثل وتداخل هذه الأدوات والنقوش والرسوم في أعمارها وعناصرها وموضوعاتها وأساليبها ومدلولاتها ، وهذا يشهد على ما كان بين سكان هذه المنطقة من اتصال وتواصل ، وتأثر وتأثير [٢] .

كذلك عثر المنقبون على صور للعربات والأبقار والحيوانات وأنواع من الأسلحة وأصناف المزروعات ، وكانت العربات تشق طريقها من البحر المتوسط إلى غرب أفريقيا ، عبر الطريق نفسها التي سلكتها القوافل في العصر التاريخي المعروف ، فقد سلكت العربات طريقين رئيسيين ، من الشمال الأفريقي إلى غرب أفريقيا ، مستخدمة في ذلك الخيول والأبقار :

الأول من سرت في ليبيا حتى مدينة غاو أو جاو في مالي ، عبر الهاجار وجبال إيفوارس .

---

(١) عبد الرحمن زكي ، تاريخ الدول الإسلامية بإفريقيا ، القاهرة ، المؤسسة العربية الحديثة ، ١٩٦١ ، (ص٧) .

(٢) عبد السلام محمد شلوف ، المقوم التاريخي لإنجاح تجمع دول الساحل والصحراء ، مجلة الثقافة العربية ، ع١ ، (ص٢٧) ، يناير ١٩٩٩ ، (ص٣١) .

والثاني من جنوب المغرب إلى وادي نهر النيجر ، عند بلدة كوندام في مالي .

وقد جرت المبادلات التجارية بين الطرفين ، خاصة في العاج وريش النعام ومسحوق الذهب والأدوات المصنوعة ، وهو أمر له شأنه في الميدان الحضاري [١] .

وفي هذا الإطار أيضًا انصبت الدراسات على جانب آخر من الجوانب الاقتصادية لتلك العلاقة في مجالين هما : اللغة ، واستخدام المعادن .

ففي مجال اللغة يقر بعض الباحثين بقوة تأثير سكان شمال أفريقيا ، بحكم القرب الجغرافي والعلاقات البشرية الواضحة بين جنوب الصحراء الكبرى وشمال أفريقيا ، ويؤكدون على أن السكان القدماء في هاتين المنطقتين يشتركون في ثقافة ذات أصل واحد .

أما في مجال المعادن فقد لعبت دول الشمال الأفريقي دورًا مهمًا في تعريف غرب أفريقيا بطرق استعمال المعادن ، الأمر الذي أدى إلى تقدم حضاري متطور ، نتج عنه الانتقال من حضارة معدنية إلى أخرى [٢] .

وإذا استعرضنا تاريخ غرب أفريقيا في العصور التاريخية ، نجد أن صلاته بالعالم الخارجي كانت في الغالب ، عن طريق الصحراء الكبرى بصفة رئيسية .

وكانت تلك الصلات قليلة في الجهات الساحلية ، وقد تيسر النقل عبر الصحراء كثيرًا منذ حوالي عام ٣٠٠م ، حينما أصبح الجمل وسيلة النقل في

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري ، الروابط التاريخية والحضارية بين دول الساحل والصحراء وموقف الاستعمار منها ، مجلة الثقافة العربية ، ع١ ، (ص٢٧) ، يناير ١٩٩٩ ، (ص٣٦) .

(٢) المصدر السابق ، (ص٢٦ـ ٣٧) .

شمال أفريقيا ، حيث لعب هذا الحيوان دورًا مهمًا في تاريخ المنطقة الاقتصادي « التجاري » ، وذلك لربطه تلك المناطق اقتصاديًا بسواحل البحر المتوسط ، وقد أسهمت هذه الوسيلة في دعم الترابط والتقارب ، وجعلت من الصحراء دولة واحدة ، سواحلها البحر المتوسط شمالًا ، وخط الاستواء جنوبًا [١] .

ومما يؤكد ذلك أن انتقال عروض التجارة ما بين أوروبا ودول الصحراء كان يتخذ من موانئ دول الساحل منفذًا له ، وقد بنت المدن الساحلية الشمالية القديمة ، كقرطاجة وصبراته وأويا ولبدة وغيرها ، مجدها وازدهارها على أنها ممرات ومعابر لهذه التجارة ، ومحطات لها .

كما أن مدن الدواخل ، مثل مرزق وغات وغدامس وتمبكتو وكانم وغيرها ، اعتمدت في وجودها ونشاطها على التجارة عينها ، وكانت القوافل المكونة من الرجال والجمال المحملة بالأرزاق ترتاد الصحراء في كل الاتجاهات ، وفي كل الأوقات ، تنقل عروض التجارة وقاصدي الحج وطلاب العلم .

ومنذ أقدم العصور كانت الهجرات الوافدة من الشرق إلى طريق القرن الأفريقي ، أو عن طريق سيناء ، أو عن طريق البحر ، تنساح في الشمال الأفريقي ، حتى تصل المغرب الأقصى ، ويستقر بعضها حيث أراد ، ويواصل بعضها هجرته ليجتاز الصحراء جنوبًا ، لينتشر في دول الصحراء .

هذه الهجرات أحدثت تأثيرًا اجتماعيًا وثقافيًا ، انعكس على الروابط القديمة حتى أن العديد من القبائل في دول الصحراء يعود أصلها إلى هذه الهجرات والتحركات [٢] ، فقد كانت أفريقيا ، بحكم موقعها على الساحل

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٨) .

(٢) عبد السلام شلوف ، مصدر سابق (ص٣٣) .

المقابل للجزيرة العربية ، مجالًا حيويًا للجماعات التي خرجت من بلاد العرب في موجات من الهجرات المتتالية ، منذ أقدم العصور ، وخاصة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، حيث لم يشكل البحر الأحمر عقبة أمام استمرار الهجرات البشرية ، عبر مضيق باب المندب ، حيث يضيق الطرف الجنوبي للبحر الأحمر ، فيقترب جنوب الجزيرة العربية قربًا شديدًا من شرقي القارة الأفريقية في تلك الجهات ، ويسهل عملية التنقل بينهما .

وهكذا كان باب المندب إحدى نوافذ الهجرة من الجزيرة العربية وغربي آسيا إلى أفريقيا ، وامتدت هذه الهجرات لتشمل مساحات واسعة في شرق أفريقيا « الحبشة والصومال » ، وانتقل بعضها شمالًا إلى السودان ومصر والصحراء وحتى شمال أفريقيا ، وهكذا كانت مصر والسودان وشمال أفريقيا مراكز استقطاب للمهاجرين عن طريق باب المندب أو برزخ السويس ، الذي يعد منفذًا قديمًا منذ ما قبل العصر الحجري الحديث [١] .

كذلك حدثت في إطار علاقة العرب بأفريقيا ، هجرات منظمة واسعة نحو الجنوب ونحو الصحراء وما وراءها ، كما عرفت تلك الجهات هجرات متلاحقة من مختلف قبائل الشمال الأفريقي ، قطنت الصحراء ووسط النيجر وغانا ، ومن هذه الهجرات التي كان لها تأثير على الأوضاع الديمغرافية والسياسية بالصحراء وغرب أفريقيا :

١ ـ المجموعة الأولى : كانت جماعة من صنهاجة ، وخاصة من قبائل لمتونة الملثمين ، وقد قطنت الواحات الصحراوية في شمال شرق مالي الحالية ،

---

(١) حبيب وداعة الحسناوي ، الهجرة الإفريقية بين الماضي والحاضر ، ع١ ، (ص٢٢) ، يناير ٢٠٠٠ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص١٥٦، ١٥٧) .

وأصبح يطلق عليها اسم الطوارق .

٢ـ المجموعة الثانية : من صنهاجة أيضًا ، وقد اتجهت نحو الجنوب الغربي ، وتوغلت في مدن أفريقيا ، واستقرت في المناطق التي تتوفر فيها المياه والمراعي .

٣ـ المجموعة الثالثة : جاءت بعد اكتساح الوندال للمغرب ، في بداية القرن الخامس ، واتجهت على طريق الواحات الوسطي ، باحثة عن مكان للاستقرار ، فاستقرت في كوكبًا الواقعة جنوب مدينة غاو ، حيث التربة الخصبة والثروة السمكية والوسط التجاري المناسب [١] .

يتضح مما ذكر أن علاقة العرب بأفريقيا ضاربة في القدم ، وأن هذه العلاقة حملت على مر العصور طابع الديمومة والحيوية ، نظرًا لتوفر مقومات وجودها المستمد من العامل الجغرافي والاقتصادي ، الأمر الذي ترتب عليه علاقات سياسية واجتماعية ، ساهمت بدورها في توطيد ودوام علاقة العرب بأفريقيا .

ثانيا : المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية :

بعد هذه اللمحة الموجزة عن علاقة العرب بأفريقيا قديمًا ، لا يمكن لنا الحديث عن المراكز الإسلامية في أفريقيا ودورها التعليمي والثقافي ، دون التطرق للإسلام والوشائج التي أوجدها ، منذ ظهوره في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي ، ودخوله إلى القارة الأفريقية ، وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، غيرت على نحو شامل البنية والسمات العامة التي كانت عليها القارة من قبل ، وهو ما سيوضح في حينه .

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري ، الروابط التاريخية ، (ص٣٦) .

١ـ نظرة عامة على دخول الإسلام إلى أفريقيا :

لقد بدأت الدعوة إلى دين الله من أول يوم ظهر فيه الإسلام ، وإذا كانت الدعوة قد بدأت في المحيط العربي ، من حيث إنه نبع في الجزيرة العربية ، فإنها لم تلبث ، بعد الهجرة النبوية الشريفة إلى المدينة المنورة ، وبعد تحقيق الأمن الداخلي لمسلمي الجزيرة العربية ، أن اتسع نطاقها لتتجاوز حدود الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي [١] .

ويعود الفضل في هذا الانتشار إلى ما كان يتمتع به الإسلام من خصائص وسمات ، شكلت المحور الأساسي في إقناع الآخرين باعتناقه ، فالإسلام يدعو إلى التوحيد ، وينادي بتحرير العقيدة من الشرك ، وبتحرير العقل والفكر ، ويدعو إلى طلب العلم والتعلم ، وإلى الحرية المسؤولة ، والعدل والمساواة ، وطلب الرزق ، والجد في العمل والحياة ، بجانب العمل للآخرة ، كما يدعو إلى نشر العقيدة الإسلامية وإلى الجهاد في سبيل الله للدفاع عنها ، وعن أرض الإسلام ومصالح المسلمين [٢] .

فالعوامل الذاتية التي اختص بها الإسلام كدين وعقيدة ومنهج وسلوك أثرت بشكل واضح على انتشاره ورسوخه في أفريقيا عمومًا ، وبدرجة سريعة .

ولقد أشرنا في بداية حديثنا إلى صلات العرب بشرق أفريقيا وشمالها وغربها قبل ظهور الإسلام ، والحقيقة أنه لولا هذه العلاقة ما كان للإسلام أن يشق

---

(١) عمر محمد التومي الشيباني ، تاريخ الثقافة والتعليم في ليبيا ، ط١ ، طرابلس ، منشورات جامعة الفاتح ، ٢٠٠١، (ص٩٩) .

(٢) المصدر السابق ، الموضع السابق .

طريقه إلى أفريقيا ، فالأرضية التي نمت عليها الصلات العربية الأفريقية هي أرضية الصلات التي كانت تربط بين تلك المناطق قبل ظهور العرب وحضارتهم ، وقبل ظهور الإسلام وانتشاره .

أما عن الطرق التي سلكها الإسلام إلى أفريقيا ، فنجد أنه نبع من شبه الجزيرة العربية ، وانتشر في مصر وشمال أفريقيا ، بيد أنه كان قبل ذلك في الحبشة ، حيث يرجع أول اتصال للمسلمين بشرق أفريقيا إلى الفترة التي سبقت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فقد تمت اتصالات بين الرسول ﷺ ونجاشي الحبشة منذ السنة الخامسة للبعثة ، وتوجهت تلك العلاقة بهجرة أصحابه إليها ، أمام أذى قريش ، وقد تمكن المهاجرون من عرض رسالتهم بصدق في بلاط النجاشي ، وبذلك يكون صوت الإسلام قد ارتفع في الحبشة ، قبل أن يتعدى حدود مكة المكرمة .

وبعد انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربية ، واستقرار الأحوال فيها ، نشطت المسالك القديمة في نقل الدين الجديد إلى السواحل الأفريقية ، ودخلت العلاقات مرحلة جديدة ، حتى أصبح ما بين أريتريا ومدغشقر ، منذ القرن الهجري الأول ، جزءًا من العالم الإسلامي .

وكان مما سهل هذا الأمر المعلومات الوافية التي كانت لدى العرب عن شرق أفريقيا ومسالكها ، عند ظهور الإسلام ، حيث كانت الحبشة قريبة من اليمن ووثيقة الصلة بها [١] .

---

(١) أحمد إلياس حسين ، مصدر سابق ، (ص٢٣٠، ٢٣١) ، كذلك علي الطاهر عريبي ، ملامح صلات العرب الثقافية بأفريقيا الشرقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٢٢٧) .

والجدير بالذكر هنا ، ذلك الدور المهم الذي لعبته بلاد البجة وجزر دهلك في نشر الإسلام في شرق أفريقيا ، فالعرب كانوا قد عرفوا أرض البجة أو البجاة ، حيث كانت تقع مواطن قبائل البجة في المنطقة المحصورة بين نهر النيل والبحر الأحمر ، فقد كان العرب يقيمون على مقربة من عيذاب على البحر الأحمر ، وانتشروا في بلاد النوبة وغيرها ، لاسيما بين النيل النوبي والبحر الأحمر والأراضي الممتدة بين أسوان ودنقلة تقريبًا ، مما أدى إلى انتشار الإسلام بينهم عن طريق الإقامة والمصاهرة ، وتوثقت عرى التعاون بينهم وبين العرب بمرور الزمن ، وقد ساهمت الظروف السياسية والاقتصادية الخاصة بالعرب في توطيد هذه العلاقة [١] .

أما جزر دهلك فهي تضم أكثر من مائة جزيرة ، أهما دهلك كبير ، دحل ، نخرة ، وغيرها ، وتقع مقابل ميناء مصوع في البحر الأحمر ، وتعد هذه الجزر مهدًا لحضارة شمال شرق أفريقيا ، فقد كانت بحكم موقعها الجغرافي القريب من البرين العربي والأفريقي ، وعلى مقربة من طريق الملاحة الدولي في البحر الأحمر ، ملتقى للحضارات ، ومركزًا للتجارة ، وكانت لها علاقات مع مصر واليونان في العصور القديمة .

وقد تشكل سكان دهلك ـ في الأعم الأرجح ـ كما تذكر بعض المصادر من الهجرات اليمنية ، بحكم موقعها الجغرافي ، فهي لا تبعد عن الحديدة على الساحل اليمني سوى نحو خمسين كيلومترًا ، وقد استقرت فيها موجات

---

(١) محمد كريم إبراهيم ، أثر العرب في بلاد البجة وجزر دهلك على انتشار الإسلام والثقافة العربية في شرق أفريقيا « الحبشة » ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١ ، س١٩ ، يناير ١٩٩٧ ، طرابلس مركز جهاد الليبيين ، (ص٦٠، ٦١) .

المهاجرين من الحميريين في عهد سبأ ، بعد انهيار سد مأرب ، ومنها انتقل المهاجرون إلى البر الأريتري ، ثم إلى الهضبة الأكسومية ، وشكلوا فيما بعد مملكة الحبشة .

وفي العصور الوسطى ارتبطت دهلك مع اليمن ارتباطًا وثيقًا ، وكان ظهور الإسلام وانتشاره عاملًا مهما من عوامل ذلك الارتباط ، فقد حافظ الإسلام على الصلات البحرية الوثيقة بين شرق أفريقيا وجزيرة العرب ، كما ازدادت الصلات توطدًا بما أملته عليها الظروف الطبيعية والاقتصادية المتبادلة [١] .

وهكذا شق الإسلام طريقه إلى شرق أفريقيا عبر الطريق البري الذي يرتبط بدور بلاد البجة في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في بلاد الحبشة ، وعن طريق القبائل العربية التي هاجرت إلى بلاد البجة واستقرت فيها ، مكونة إمارات عربية إسلامية .

والطريق الثاني كان الطريق البحري الذي يرتبط بدور جزر دهلك في نشر العروبة والإسلام في الحبشة ، إذ كانت تلك الجزر بمثابة الجسر المؤدي إلى الحبشة ، ثم ازدادت الهجرات العربية إليها ، للعمل في التجارة ، مما ساهم في انتشار الإسلام والعروبة ، وامتدادهما من تلك الجزر إلى بلاد الحبشة وساحل أفريقيا الشرقي [٢] .

ومن هنا أحرز الإسلام تقدمًا واضحًا على الساحل ، ابتداء من جزر دهلك والمدن الساحلية ، وبين قبائل البجة في الشمال الحبشي وأهل سيداموا في الجنوب ، وإمارة شرق إقليم شوا ، وفي منطقة هرر قرب بحيرة زوالي في

---

(١) المصدر السابق (ص ٧١، ٧٢) .

(٢) نفسه (ص٥٩) .

الغرب ، وبذلك أحاط الإسلام الهضبة الحبشية ، بل دخل في جزء منها وهو إقليم شوا [١] .

أما عن انتشار الإسلام في غرب أفريقيا ، فيمكن القول : إنه أخذ ينتشر تدريجيًا عبر الأقاليم الجنوبية حتى بلغ ساحل أفريقيا الغربي ، عن طريق التجارة ، كما أنه انتشر من ساحل البحر المتوسط في شمال أفريقيا نحو الصحراء الكبرى ، وفي إقليم المراعي والشجيرات القصيرة جنوبي الصحراء ، وبلغ في بعض الجهات إلى ساحل المحيط الأطلسي وساحل غينيا .

وبيان ذلك أن العرب ، بعد أن تم لهم فتح مصر في سنة (٥٤٠م) ، على يد عمرو بن العاص ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، واستقام أمرها للمسلمين ، فتح المسلمون برقة صلحًا ، ثم فتحت طرابلس ، واستمرت الفتوحات الإسلامية تواصل نشاطها نحو بلاد المغرب ، ففتحت تونس ، وأسس عقبة بن نافع مدينة القيروان فيها ، فاتخذها المسلمون قاعدة انطلاق لنشر الإسلام في شمال القارة وغربها ، كما تمكن المسلمون من نشر الإسلام في المغرب [٢] .

ولكن على الرغم من توالي الأحداث السياسية التي عمت شمالي أفريقيا وغمرتها في حالة من الفتن والقلاقل ، لم يؤثر هذا الوضع على الدور الملحوظ الذي لعبه أهل الشمال الأفريقي في نشر الإسلام والثقافة العربية ، خاصة ما

---

(١) خديجة أحمد الطناشي ، العلاقات السياسية بين القوى الإسلامية في الحبشة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، ١٩٩٦ ، (ص٧٧) .

(٢) فضل كلود الدكو ، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي ، لإمبراطورية كانم من ٦٠٠ ـ ١٠٠٠هـ ، ١٢٠٠ـ ١٦٠٠م ، رسالة دكتوراه منشورة ، ط١ ، كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٩٨ ، (ص٣٩، ٤٠) .

قام به المرابطون ، ثم الموحدون ، في أنحاء واسعة من القارة الأفريقية ، وهكذا انساب الدين الإسلامي عابرًا المساحات الشاسعة في أفريقيا ، فوصل إلى ساحل غينيا ونيجيريا ، وخصوصًا في سكتو وكانو وزاريا وغيرها ، وفي جنوبي غانا وساحل الذهب وفي داهومي [١] .

يستخلص مما سبق أن انتشار الإسلام في أفريقيا قد اجتاز عدة مسالك نجملها فيما يلي :

١ـ طريق شمال أفريقيا ، مجتازًا مصر وبرقة وطرابلس وتونس والمغرب الأوسط وبلاد السوس الأقصى إلى مصب نهر السنغال ، وبعد نمو البحرية الإسلامية اشترك معها طريق بحري من موانئ الشام ومصر إلى موانئ المغرب الأقصى .

٢ـ الطريق الصحراوي ، ويبدأ من أسيوط ، مارًا بواحات مصر في الصحراء الغربية ، ويجتاز بلاد المغرب ، حتى يصل إلى غرب أفريقيا .

٣ـ طريق القوافل من طرابلس وبلاد المغرب ، بقسميها الأوسط والأقصى ، إلى شمال السودان ، وخاصة الطريق الذي يبدأ من جنوب تونس إلى بلاد برنو ، غربي بحيرة تشاد ، ومن جنوب الجزائر إلى بلاد الهوسا ، شمال نيجيريا ، ومن جنوب مراكش إلى مصر نهر السنغال ومنحنى النيجر .

٤ـ طريق وادي النيل عبر الصحراء الشرقية إلى بلاد النوبة وشمال السودان .

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، ط٤ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ٢٠٠٠ ، (ص١٦ ، ١٧ ، ٢٢) .

٥ـ الطريق البحري من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى ساحل أفريقيا الشرقي ، ومنه إلى قلب أفريقيا [١] .

٢ـ وسائل انتشار الإسلام في أفريقيا :

إن صورة انتشار الإسلام وتغلغله داخل القارة الأفريقية لا تكتمل إلا بذكر الوسائل أو الكيفية التي تم عن طريقها تحقيق هذا الانتشار ، والذي أحدث صدى إيجابيًا وتأثيرًا قويًا في حياة وثقافة الإنسان الأفريقي ، هذه الوسائل نجملها فيما يلي :

أ ـ اللغة العربية :

دخلت اللغة العربية إلى القارة الأفريقية قبل ظهور الإسلام ، حيث شكلت الصلة التجارية بين العرب والأفارقة البدايات الأولى لانتشار اللغة العربية في أفريقيا قبل الإسلام .

وقد نمت هذه الصلة وتطورت بعد ظهور الإسلام ، فمع الفتوحات الإسلامية كان أول بلد استقرت فيه من البلدان الأفريقية هو مصر ، ثم انطلقت إلى السودان جنوبًا ، وليبيا غربًا ، وأصبحت اللغة العربية هي القادرة وحدها على استيعاب الوجه الحضاري والثقافي والسياسي الجديد .

ثم بعد ذلك توجهت اللغة العربية إلى تونس والمغرب ، ثم امتدت إلى أقطار أواسط أفريقيا وجنوبها ، فبعد أن وصلت موريتانيا امتدت إلى السنغال ، ومنها إلى غينيا ومالي والنيجر وتشاد والكاميرون وفولتا العليا ، في الوقت الذي دخلت فيه عن طريق باب المندب إلى الصومال وكينيا وأوغندة

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٥٠) .

وجيبوتي ومدغشقر وجزر القمر وتنزانيا وموزمبيق ، فاللغة العربية هي لغة العقيدة ، لغة القرآن الكريم ، ولهذا فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بانتشار الإسلام ، وقد كفل هذا الارتباط سعة الانتشار والبقاء لكل منهما [١] .

ب ـ التجارة والتجار :

لقد كانت التجارة الركيزة الأولى للصلات العربية الأفريقية قبل ظهور الإسلام ، وشكلت العامل الأساسي في انتشار الثقافة العربية في القارة الأفريقية ، وقد تعززت هذه الصلات وأخذت مضمونًا ثقافيًا جديدًا ، بعد ظهور الإسلام [٢] .

كانت الصحراء ، وما زالت ، أداة وصل فعالة ، وحدت بين شمال القارة وجنوبها ، فهي عند أبنائها دروب واضحة المسالك ، ينسابون عليها بقوافلهم المحملة بالخير والعطاء ، والمتنقلة بين طرابلس وكاوار وكانم وزويلة وبرنو وغدامس وتمبكتو ومرزق وجالو وسيوة ومراكش وأورقلة وغرادية وعشرات المدن ، فيما يعرف الآن بتشاد ومالي والنيجر ونيجيريا ومصر وليبيا وتونس والجزائر وغيرها [٣] .

---

(١) عبد الجليل مغتاظ التميمي ، اللغة العربية إحدى اللغات الأفريقية التي يمكن اعتبارها لغة مشتركة ووسيلة من وسائل الاتصال بين الشعوب الأفريقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٢ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٢٩٩ـ ٣٠١) .

(٢) حميد دولاب ضيدان ، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقية ، ط١ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٠٠٣ ، (ص١١٠) .

(٣) محمد الطاهر الجراري ، الافتتاحية ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١ ، س٣ ، يناير ١٩٨١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص٥) .

شهدت هذه الصحراء قبل الإسلام علاقات تجارية بين العرب وأفريقيا ، حيث كانت بعض القبائل تقوم بهذا النوع من التجارة الصحراوية ، منذ أمد بعيد ، غير أن هذه التجارة تطورت ، وأصبحت هناك صلات تجارية كبيرة ومنظمة ، وفي نشاط متزايد بين أنحاء القارة الأربعة ، حيث أتت القوافل في تلك الفترة من الشمال الأفريقي ومصر وشبه الجزيرة العربية ، وفي مواسم مختلفة ، ناقلة إلى أفريقيا ما تحتاج إليه من هذه المناطق ، وتعود محملة بالبضائع الأفريقية الرائجة في أسواق المغرب والمشرق العربيين .

وقد ألفت أفريقيا جنوب الصحراء هؤلاء التجار في مرحلة ما قبل انتشار الإسلام ، ولامست عن كثب سلوكياتهم في التعامل ، من كبرياء وتعالٍ وتعامل بالربا وتجارة الرقيق [١] .

ثم شاهدوا كيف تغيرت هذه المظاهر والطباع والسلوكيات ، بدخول هذه الفئة الإسلامية ، والتزامها بتعاليمه ومبادئه ، فكانوا بشكل أو بآخر ، دعاة لهذا الدين في الأماكن التي ارتادوها ، فنجدهم في القرن الأول الهجري يحملون مع تجارتهم إلى بلاد غرب أفريقيا دينًا جديدًا ، هو الإسلام ، كما حملوا عادات وتقاليد طيبة في السلوك والمعاملة ، كان الإسلام هذبها وطورها ، ولم يكن أولئك التجار جميعهم طلاب ربح ومال ، بل كان فيهم نخبة ممتازة من الفقهاء والعلماء ، اختلطوا مع سكان القارة في الأسواق والمدن والقرى ، نشروا بينهم الدعوة إلى الإسلام ، كما ساهمت فئة التجار في تعزيز الروابط الاجتماعية ، وذلك بالمصاهرة مع قبائل غرب أفريقيا ، فوجدت أجيال

---

(١) عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق أفريقيا وجنوب الصحراء ، ط٤ ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٩٨ ، (ص١٠١) .

إسلامية عربية تتقن اللغة العربية ، وتتحدثها بطلاقة ، إلى جانب اللغة الأفريقية الأم ، مما ساعد على تغلغل الثقافة العربية الأفريقية في القارة [١] .

كما كان من الأمور التي يسرت حركة القوافل التجارية في ربوع القارة ، وتيسر معها نشر الإسلام في تلك الربوع ، ما قام به عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، حفيد عقبة بن نافع ، الذي حفر سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقيا جنوب الصحراء ، وبين مدينة أودغست بصحراء المغرب الأقصى ، الأمر الذي سمح بانتظام حركة القوافل المتجهة نحو غرب أفريقيا ، مما تمخض عنه نتائج حسنة في إدخال الإسلام ونشره في بلاد ما وراء الصحراء الكبرى [٢] .

يتضح مما سبق أن الاتصال التجاري يؤدي إلى تبادل ثقافي ؛ إذ لا يخفي أن البيع والشراء يصحبهما دومًا تبادل الأفكار ونمو الثقافات وانتقال الحضارات ، لاسيما أن العنصر الإسلامي أظهر كل مهاراته في الميدان التجاري ، وما يتعلق به من تعامل مع الآخرين .

كذلك لولا طرق القوافل التي كانت تربط بين أجزاء القارة ، لما ازدهرت في وقت من الأوقات الحضارة الإسلامية التي عرفتها دول وممالك أفريقيا .

أما ما يتعلق بشرق القارة ، فقد نما النشاط التجاري العربي في عصر صدر الإسلام ، وبدأ المسلمون يشرفون على التجارة ، وامتد نفوذهم على ساحل البحر الأحمر حتى دهلك ، ونمت مراكز التجارة الإسلامية على هذا الساحل ،

---

(١) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (ص١٢٥) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٢٦) .

كما نشأت المراكز التجارية ، منذ الربع الأخير من القرن الهجري الأول ، جنوبًا على ساحل الزنج حتى كلوة ، فنشطت موانئ زيلع وبربرة وباد ولامو ومالندي ومنبسة وزنجبار .

وأشرفت تلك المراكز إشرافًا مباشرًا على تجارة أفريقيا ، ووفد الكثير من التجار ، وخاصة من اليمن والخليج العربي ، واستعادوا دورهم الطليعي القديم في شرق أفريقيا ، وقد اقتضت طبيعة التجارة والملاحة في المنطقة استقرار التجار لفترات طويلة ، فترتب على هذه الإقامة اختلاط هؤلاء التجار العرب بالعنصر المحلي ، مما أدى إلى سرعة انتشار الإسلام بينهم ، وانتقاله إلى الداخل ، كذلك استقرت مجموعات من التجار المسلمين على سفوح هضبة الحبشة في الداخل ، فكانوا روادًا للإسلام هناك [١] .

يلاحظ على ما ذكر أن التاجر العربي أدى دور الداعية للإسلام ، من خلال تجواله بتجارته ، فيتغلغل الإسلام بمقدار ما يتغلغل هؤلاء التجار ، ويستقر بمقدار ما يستقرون ، وهكذا حمل التجار المسلمون ، عربًا ومحليين ، الدين الإسلامي إلى قلب القارة ، واحتكوا بتلك الشعوب ، مما كان له تأثير إيجابي على العلاقة بينهما ، ومن ثم على نشر الثقافة العربية الإسلامية في تلك المناطق .

جـ ـ الدعاة والمعلمون :

إذا كان الإسلام قد دخل شمال أفريقيا بواسطة الجنود الإسلاميين ، فإنه دخل جنوب القارة عن طريق الدعاة والتجار [٢] .

---

(١) أحمد إلياس حسين ، مصدر سابق ، (ص٢٣١) ، كذلك خديجة أحمد الطناشي ، مصدر سابق ، (ص٧٦ ـ ٧٩) .

(٢) جبريل أبو بكر علي ، الثقافة في بلدان الساحل الأفريقي ، محاضرات الموسم الثقافي الحادي عشر ، لسنة ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠ ، (ص١٥) .

والإسلام ـ كما يراه البعض ـ دين محلي ، ويعني ذلك أن الإنسان بمجرد اعتناقه الإسلام ، وإعلانه الشهادتين ، يصبح صاحب الفكرة ، التي تنطلق منه إلى غيره ، خلافًا لما نجده في اليهودية والمسيحية ، حيث يكون المبشرون من السادة [١] .

أما في الإسلام فلا يوجد تضارب في الأدوار بين الفاتح والداعي ، فالداعي المسلم كان يعقب الفاتح ، ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام [٢] .

ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة ، فليس هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه ؛ إذ يصبح كلاهما متساويين أمام الله [٣] .

قام نشاط الدعاة والمعلمين على الإرشاد ونشر التعاليم الإسلامية ، وهم الذين وهبوا أنفسهم لنشر هذا الدين بين سكان غرب أفريقيا ، فهم لا يمثلون فئة مرسلة من قبل هيئة إسلامية ، أو حكومة مركزية ، بل كانوا يقومون بهذا العمل بدافع الواجب الديني ، فكان منهم التاجر الذي يتخذ من التجارة وسيلة للعيش الحلال ، ثم يقوم بأداء رسالته .

كذلك من الدعاة من كرس جهده لدعوة الناس إلى دين الإسلام ، وانقطع لتعليم معتنقيه تعاليمه وقواعده الشرعية ، فكان هؤلاء يتوغلون في داخل البلاد ، ويختلطون بالسكان ، ويتزوجون ممن أسلم ، ويقومون بتعليم الأطفال مبادئ العقيدة ، وكان يفد على هؤلاء الدعاة الأطفال المسلمون والوثنيون على السواء ، طلبًا لهذا العلم الجديد ، وبعد دراسة شيء من آيات القرآن الكريم ،

---

(١) المصدر نفسه ، (ص١٦) .

(٢) حسن إبراهيم نفسه ، مصدر سابق ، (ص٦١) .

(٣) المصدر نفسه (ص٧٧) .

يدخل كثير من الوثنيين في الدين .

ولما فتح الشمال الأفريقي جاء كثير من الدعاة في ركاب القوافل التجارية الآتية من الشمال ، وكان من العادة أن يصطحب التجار العرب المسلمون معهم عالمًا أو فقيهًا ، يؤمهم في الصلاة ، ويبصرهم بأمور دينهم .

وكان الدعاة المسلمون الذين وفدوا إلى غرب أفريقيا من شمالها ، واستقروا بها ، وكذلك المهاجرون الذين قصدوها بحثًا عن العمل ، وسكنوا مع أهل البلاد ، يعدون دعاة للإسلام ، سواء أقاموا بهذا العمل بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر [١] .

ويعتبر من بين الدعاة أيضًا الحجاج العائدون من الحجاز ، والذين كانوا يتأخرون في العودة لرغبتهم في قضاء مدة أطول في مجاورة الحرمين ، لتلقي تعاليم الدين ، ونظام الدعوة إليه في حلقات العلماء ، فكان من بين هؤلاء العلماء من ساهم في نشر الدين وثقافته في غرب أفريقيا ، دون أن يرتحل إليها ، وذلك بتعليم الوافدين من الحجاج مبادئ الدعوة وبعضًا من علوم الفقه والسيرة النبوية ، وشيئًا من التوحيد والتفسير ، ليكونوا أقدر على إقناع الآخرين بما جاء به الإسلام ، ومن هنا عرف نظام المجاورة للحرمين الشريفين ، وعرف حجاج غرب أفريقيا بهذا اللقب .

كذلك كان من الدعاة أهل البلاد الأصليون ، الذين أسلموا وارتحلوا طلبًا للعلم في المراكز الإسلامية ، كالقيروان وفاس وطرابلس والأزهر الشريف ، ثم عادوا إلى ديارهم دعاة ومرشدين يعلمون الناس ، وقد حظي هؤلاء

---

(١) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، ١٣٦ ـ ١٣٧ .

باحترام وتقدير الحكام والأهالي [١] .

د ـ الفرق الصوفية :

بتحول كثير من أهل أفريقيا إلى الإسلام ظهر من بين المسلمين كثير من العلماء والفقهاء والزهاد ، ولما كان أصحاب الطرق الصوفية كتابًا وفقهاء ومعلمين ومتشبعين بالميول الصوفية ، من زهد وتقشف والتزام بأوامر القرآن الكريم ومبادئ التوحيد [٢] ، فقد التف حولهم الأفارقة ، وانضموا إلى حلقات ذكرهم ، مما أشاع في نفوس هؤلاء الأفارقة الأمان والاطمئنان ، وبخاصة أن هذه الفرق الصوفية قد انتشرت في مناطق وبيئات بسيطة ، حيث ينتشر الفراغ والبطالة بين الناس [٣] .

كان أول انتشار لهذه الفرق في أفريقيا على يد القادرية ، حيث ظهرت هذه الفرقة في مصوع ويزلع ومقديشيو وبعض المدن الساحلية [٤] ، كما انتشرت السنوسية بزواياها من مصر إلى المغرب ، وامتدت في الداخل حتى واحات الصحراء وفي السودان والحبشة والصومال ، بل امتدت إلى بلاد العرب والعراق وأرخبيل الملايو ، أما التيجانية فانتشرت في الصحراء الكبرى والسودان [٥] .

إن انتشار الفرق الصوفية ، كالقادرية والتيجانية والسنوسية ، يعود لما في

---

(١) المصدر السابق ، (ص١٣٨ ، ١٣٩) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق ، (ص٤٣ ، ٤٧) .

(٣) عطية مخزوم الفيتوري ، دراسات ، (ص١٠٨) .

(٤) علي الطاهر عريبي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٦) .

(٥) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق ، (٤٥ ، ٣٦ ، ٤٨) .

تعاليمها من سمات وخصائص ، تعد في مجملها نموذجًا مثاليًا وتجسيدًا للخصائص الذاتية للإسلام .

وقد استقطب ما قامت به الفرق الصوفية من أعمال إيجابية الأفارقة ؛ إذ قام أصحاب هذه الفرق بنشاط ثقافي تربوي اجتماعي اقتصادي ، فبذلوا جهودًا لإحالة الصحراء إلى مناطق آمنة ، بإقامة مؤسسات دينية اجتماعية وثقافية ، فكانت الزوايا والتكايا والخلاوي تقدم لروادها ما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ، بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم ، وتعليم القراءة والكتابة والوعظ والإرشاد ، مما شجع أعدادًا كبيرة من الأفارقة على الدخول في الإسلام والانضمام إلى هذه المؤسسات [١] .

وهكذا ، فأيًا ما كان التباين والتشابه بين دعوات هذه الفرق ، فإنها جميعًا كانت تتفق على هدف واحد هو العمل على نشر الإسلام وتعميقه في النفوس .

هـ ـ الهجرة :

أفريقيا هي إحدى قارات العالم التي شهدت هجرات بشرية ، منها وإليها ، وهجرات داخلية بين مختلف أقسامها وأقاليمها ، وقد ترتب على هذه الهجرات نتائج بعيدة المدى ، ظهرت آثارها على الخريطة البشرية ومواطن الاستقرار ونمط العيش والسلوك وعلى الاختلاط والتمازج العرقي بين الأقوام والجماعات التي احتكت ببعضها سلمًا أو حربًا [٢] .

---

(١) د . أ . م . كاني ، مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال أفريقيا ووسط السودان ، مجلة البحوث التاريخية ، ع ١ ، س ٣ ، يناير ١٩٨١ (طرابلي : مركز جهاد الليبيين) ، (ص٢٤) .

(٢) حبيب وداعة الحسناوي ، مصدر سابق ، (ص١٥٣ ، ١٥٤) .

مثلت أفريقيا ، بحكم موقعها على الساحل المقابل للجزيرة العربية ، مجالًا حيويًا للجماعات التي خرجت من بلاد العرب في موجات من الهجرات المتتالية ، منذ أقدم العصور ، وخاصة من جنوب شبه الجزيرة العربية ، فلم يشكل البحر الأحمر عقبة أمام تدفق الهجرات البشرية عند مضيق باب المندب ، وهكذا كان هذا المضيق إحدى نوافذ الهجرة من الجزيرة العربية وغرب آسيا إلى أفريقيا ، وقد امتدت هذه الهجرات لتشمل مساحات واسعة في شرق أفريقيا ، وانتقل بعضها شمالًا إلى السودان ومصر والصحراء ، وحتى شمال أفريقيا .

وبظهور الإسلام تعمقت الصلات بين بلاد العرب وأفريقيا ؛ إذ أعطى الإسلام العرب قوة دافعة جديدة لنشر هذا الدين ، وتحويل الأفارقة إلى الإسلام ، فتدفق العرب بأعداد كبيرة على أفريقيا الشرقية والشمالية ، وتوغلوا فيها ، وامتزجوا مع سكانها الأصليين ، بالاختلاط والمصاهرة ، ونشروا الإسلام بين المجموعات الوثنية من السكان ، وارتبطوا معهم بمصالح مشتركة ، وتعربت تلك المناطق بالنمو الدائم في علاقات المصاهرة ، والدين الإسلامي وثقافته [١] .

هذا ومن الجدير بالذكر أن أكثر الهجرات الإسلامية فعالية هي تلك التي كانت تتوغل في القارة عن طريق المسالك الصحراوية القادمة من ليبيا ، وأهم هذه جميعًا هجرات أولاد سليمان والأدوار الفعالة للدعوات الفكرية الإسلامية التي انطلقت من المغرب العربي [٢] .

---

(١) المصدر السابق ، (ص١٥٨ ، ١٥٩) .

(٢) عبد المولى صالح الحرير ، الإسلام وأثره على التطورات السياسية والفكرية والاقتصادية في أفريقيا جنوب الصحراء ، مجلة البحوث التاريخية ، ع ٢ ، س١١ ، يوليو ١٩٨٩ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص٩٩) .

وهكذا ، بعد استعراض الملامح الأساسية لانتشار الإسلام في أفريقيا على نحو شمولي ، يمكن لنا أن نتناول المراكز الإسلامية في أفريقيا ، ودورها في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية .

يعد بروز المراكز الإسلامية في القارة الأفريقية من الظواهر الإيجابية لانتشار الإسلام هناك ، وقد أسهمت هذه المراكز بفعالية بالغة في إرساء الحضارة العربية الإسلامية في ربوع القارة .

لقد حمل الإسلام إلى أفريقيا عاملين حضاريين يعتبران من أهم العوامل الحضارية التي ساعدت أبناء القارة على استيعاب المفاهيم الحضارية بشكل جيد ، وهما : اللغة العربية ، وإن كانت موجودة من قبل ، ولكن اتسع انتشارها بانتشار الإسلام ، والكتابة العربية ، ذلك أنه من المعروف أن ثقافة أفريقيا ، قبل الإسلام ، كانت ثقافة شفهية غير مدونة [١] ، ويعزو بعض الباحثين انتشار اللغة العربية في أفريقيا إلى عدم جواز ترجمة القرآن الكريم ، وكتابته بغير اللغة العربية ، التي نزل بها ، فضلًا عن عدم جواز القراءة بغير اللغة العربية في الصلاة ، ومن ثم كان على كل أفريقي دخل الإسلام أن يتعلم ويحفظ من القرآن ما يمكنه من أداء طقوسه الدينية [٢] .

وهكذا ، مع انتشار الإسلام في أفريقيا ، انتشرت في ركابه اللغة العربية والكتابة العربية ، فلولا دخول هذين العاملين إلى القارة لما برزت المراكز العلمية الإسلامية ، ولما ظهر العلماء والفقهاء والمعلمون الذين آثروا بعلمهم

---

(١) الهادي المبروك الدالي ، الإسلام واللغة العربية في مواجهة التحديات الاستعمارية بغرب أفريقيا ، بيروت ، دار صنين ، ١٩٩٦ ، (ص١٧٥) .

(٢) نفسه (ص٦٨) .

الحياة العلمية والثقافية في أفريقيا .

أما عن المراكز الإسلامية فهي : القاهرة وجامعها الأزهر وأروقته ، مثل الرواق السناوي والفوراوي والتكروري ، كذلك طرابلس الغرب والقيروان وفاس والزيتونة بتونس ، وتمبكتو وجنى وكانوا وجاو وأودغست وكانم برنو ..... وغيرها .

وسنكتفي هنا ، بإعطاء بعض الأمثلة لهذه المراكز ونشاطها العلمي والثقافي كمدينة تمبكتو وجنى وكانم ـ برنو وكانو .

١ ـ مدينة تمبكتو :

حملت تمبكتو أسماء عديدة ، كالمدينة الفاضلة ، المدينة الثرية ، المدينة الممنوعة ، جوهرة الصحراء ، مدينة الإشعاع الإسلامي ، وغير ذلك من الأسماء الأخرى التي عكست خصائصها على مدى ثلاثة قرون كاملة ، أشعت فيها ، بفضل علمائها وأئمتها وشيوخها ومرابطيها ، على كامل السودان الغربي والأوسط ، وإلى أبعد من ذلك ، وعلى أرضها أقيمت إمبراطوريات وممالك إسلامية عظيمة ، ساهمت في نشر الإسلام ، الذي بفضله ارتقت تلك الممالك والإمبراطوريات الإسلامية ، وسجل ملوك وأباطرة تلك الدول الإسلامية أسماءهم في سجل المجد لهذه الأمة العظيمة ، وبهذا الدين الذي حمل أولئك الرجال لواء الإسلام إلى كافة أنحاء المنطقة [١] .

كانت تمبكتو مركزًا تجاريًا مهمًا ؛ إذ كانت التجارة عماد تكوينها كمدينة منذ

---

(١) علي محمد عبد اللطيف ، تمبكتو أسطورة التاريخ ، ط١ ، ليبيا ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ٢٠٠١ ، (ص٦) .

البداية ، الأمر الذي مكنها من استيعاب الوافدين إليها ، بعد أن برزت كمركز إسلامي حضاري ، فتمبكتو بحكم موقعها على حافة الصحراء الكبرى الجنوبية ، وعلى ضفاف نهر النيجر ، تنطلق منها ، وتأتي إليها التجارة من الشمال والجنوب على حد سواء ، حيث أنها كانت مركزًا للتبادل التجاري ومنطقة تخزين رئيسية لمختلف أنواع البضائع ، وكان التجار يستخدمون الإبل في نقل أو استجلاب التجارة من الشمال ، بينما يستخدمون القوارب لنقلها أو جلبها باتجاه أرض الجنوب عبر نهر النيجر ، وكان الاتفاق والتعاقد على تبادل التجارة يتم داخل المدينة بين التجار القادمين من الشمال ، وأولئك القادمين من بقية مناطق السودان الغربي أو الأوسط عن طريق وسطاء التجارة من أهل المدينة نفسها [١] .

وهكذا بدأت تمبكتو تأخذ مكانتها كمدينة تجارية بالدرجة الأولى ، قبل أن تصبح في وقت لاحق منارة علمية ودينية ، وقد قدر لمدينة تمبكتو أن تكون من أهم المراكز الإسلامية في قلب القارة الأفريقية ، طيلة القرنين ١٤ ، ١٥ ، نظرًا لاستيعابها للحضارة المشتركة مع عرب الشمال ، فقد اندمجت الشعوب السودانية في غرب أفريقيا في عالم الحضارة الإسلامية ، وشاركت مسلمي الشمال في نظمهم السياسية والدينية والآداب والعلوم [٢] .

هذا وقد شهدت تمبكتو ازدهارًا علميًا ودينيًا ، عندما توافد العلماء ورجال الدين للتدريس في مساجدها [٣] ، فحيثما حل الإسلام ، وتكونت جماعة

---

(١) المصدر نفسه ، (ص٣٠، ٨٧) .

(٢) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٢١٦) .

(٣) علي محمد عبد اللطيف ، مصدر سابق (ص١٠٠) .

إسلامية كانت هناك مدرسة لتعليم الأطفال ، متمثلة في المساجد والكتاتيب التي كانت تمثل المدارس الأولية الابتدائية [١] .

كان بالمدينة ثلاثة مساجد شهيرة : المسجد الأول أقامه الملك منسي موسى ، أحد أشهر ملوك إمبراطورية مالي ، والذي اشتهر عهده بحب العلم والعلماء ، في تمبكتو بعد عودته من رحلة الحج ، وهناك أيضًا مسجد سنكوري الشهير ، وهو المسجد الذي تحول إلى منارة علمية «جامعة» في المنطقة كلها ، أما ثالث هذه المساجد فهو الذي بناه محمد النهري تكريمًا لأحد علماء المنطقة ، وواحد من أبرز علمائها ووعاظها في مجال الدعوة والإرشاد ، وهو الشيخ سيدي يحيى ، والذي شيد في القرن الخامس عشر ، واستمر كإمام وواعظ ومدرس لعلوم القرآن والحديث إلى أن توفي ، بالإضافة إلى هذه المساجد الشهيرة ، كانت هناك عشرات المساجد الأخرى الصغيرة ، كما أقام السكان أيضًا المدارس لحفظ القرآن الكريم ، وتفسير معانيه وتعليم اللغة العربية ، فكان طلاب العلم يتوافدون إليها من مختلف مناطق السودان الغربي [٢] .

توسع علماء تمبكتو في إقامة ندوات الوعظ والإرشاد لتوعية الناس بأصول دينهم وتثقيفهم بمختلف العلوم الإسلامية ، وشتى المعارف الأخرى ، حيث شهدت تلك الفترة تنامي وغزارة علوم ومعارف علماء تمبكتو ، الذين نشطوا في تدوين المخطوطات المتضمنة شتى العلوم الإسلامية ، من تأليفهم وإبداعهم ، إضافة إلى المخطوطات التاريخية التي تسجل تاريخ المنطقة ومن

---

(١) علي محمد كريدغ ، التعليم في أفريقيا أداة للاستعمار ووسيلة للتحرر ، أعمال مؤتمر التعليم ، ٣٨ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٦٨ ، (ص٢٨٩) .

(٢)علي محمد عبد اللطيف ، مصدر سابق ، (ص١٠٠ ، ١٠١) .

فيها وما مر عليها من عهود وملوك وسلاطين [١] .

أما بالنسبة للمناهج الدراسية بمدارس تمبكتو وجامعاتها ، فقد كان منهج التعليم في المرحلة الابتدائية والإعدادية معًا يتضمن تحفيظ القرآن الكريم للأولاد الصغار ، وتلقينهم مبادئ الدين الإسلامي الأساسية ، إلى جانب تعليم قراءة اللغة العربية وكتابتها ، حيث كانت اللغة الوحيدة المستخدمة في العلم والإدارة ، وكما يذكر هذا المصدر كان تلاميذ تمبكتو من الكثرة بحيث إنه كاد يتعذر توفير المعلمين لهم ، ولعلاج هذا الأمر كان طلبة القرآن أنفسهم يمارسون التعليم على نطاق واسع ، إلى جانب دراستهم الخاصة .

وفيما يتعلق بالمرحلة العالية ، فقد كان التعليم فيها ، وخاصة في مركز سنكوري ، أو كما يطلق عليه البعض جامعة سنكوري بتمبكتو ، يشتمل على نفس المناهج الدراسية التي كانت تدرس في كل من جامعة الأزهر والقيروان وفاس ، التي كانت مناهجها تتضمن علومًا مثل : التوحيد والتفسير والحديث والفقه والعلوم العقلية ، مثل : النحو والصرف والبلاغة والبيان والمنطق والتاريخ وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية ، كما اشتهرت هذه الجامعة بتدريس الفقه المالكي الذي كان يقوم بتعليمه فيها علماء من الأفارقة ، إلى جانب العلماء الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس ، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين وفدوا على هذه الجامعة من مناطق غرب أفريقيا المجاورة [٢] .

---

(١) المصدر السابق (ص٩٣) .

(٢) فاي منصور علي ، إسكيا الحاج محمد ، وإحياء دولة السنغاي الإسلامية ، ط١ ، الجماهيرية ، كلية الدعوة الإسلامية ، ١٩٩٧ ، (ص٢١٥ ، ٢١٦) .

أوجد هذا التواصل والتعاون العلمي نوعًا من الارتباط الثقافي والحضاري بين مدينة تمبكتو وبين أشهر جامعات العالم الإسلامي ، ومن ناحية أخرى مكن مدينة تمبكتو من القيام بدور ثقافي بارز في بلاد السودان وغربها ووسطها وشرقها ، لاسيما في عهد مملكة مالي والسنغاي ، فقد اجتمع فيها العلماء من كل جنس ولون ، وكان فيهم المغاربة وأهل الأندلس والمصريون والحجازيون ، كما أمها الطلاب من كل بلاد السودان : من السنغال إلى النيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم ودارفور ، وتعلم فيها الكثير من الفقهاء والعلماء ، وألِّفت بها العديد من المؤلفات في مختلف العلوم [١] .

كان من النتائج الإيجابية لهذا التفاعل الفكري والإسلامي أن برز عدد من علماء المنطقة في شتى علوم الدين والتاريخ والفقه ، كان من بينهم الشيخ محمد كرعك ، محمد بن محمد الكاتسيناوي ، نسبة إلى مدينة كاتسينا ، المتوفى عام ١٧١٤ ، والعالم عثمان بن محمد بن فودي ، المتوفى عام ١٨١٧ ، والشيخ العالم عبد الله بن فودي المتوفى عام ١٨٢٩ ، والذي ألف وحده أكثر من مائة كتاب ومخطوط ، وهو شقيق الشيخ عثمان ، ونجله محمد بللو ، المتوفى عام ١٨٣٧ ، والذي ألف أكثر من ٢٠٠ كتاب ، في شتى علوم الدين والتاريخ والفقه والبلاغة ، والشيخ محمد الأمين الكانمي ، والحاج عمر بن إدريس والشيخ مختار الكنس الكبير [٢] .

كذلك من علماء تمبكتو البارزين أحمد بابا (١٥٥٣ ـ ١٦٢٧) الذي ترك ما يربو على الأربعين مؤلفًا ، والشيخ عبد الرحمن السعدي ، صاحب كتاب

(١) حميد دولاب طيدان ، مصدر سابق ، (ص١١٤) .

(٢) علي محمد عبد اللطيف ، مصدر سابق ، (ص٢٢) .

تاريخ السودان ، والقاضي محمود كعت وغيرهم [١] .

فمدينة هذا حالها في إنجاب العلماء والاهتمام بالعلم ، كان لابد لها أن تعبر عن المستوى الثقافي الذي وصلت إليه ، وهو ما تمثل في وجود مكتبة ضخمة بالمدينة ؛ بالإضافة إلى المكتبات العامة التي يمتلكها العلماء ، والمفتوحة لطالب العلم والمعرفة ، كما أدت غزارة الإنتاج العلمي إلى وفرة الكتب ، حيث كانت تباع في حوانيت تمبكتو إلى جانب السلع الأخرى ، غير أن الكتب كانت أكثر السلع رواجًا في أسواقها [٢] ، الأمر الذي له دلالته على المستوى الثقافي الذي وصلت إليه البلاد .

وهكذا ظلت مدينة تمبكتو في تطورها الحضاري عبر القرون ، تمارس دورها التعليمي والثقافي في أفريقيا ، بفضل مساهمة هؤلاء العلماء وأهل الفقه واللغة والشريعة الإسلامية ، مما مكنها من أن تسهم في إرساء قواعد المعارف الدينية والثقافة العربية الإسلامية في أرجاء المنطقة ، لا يوقف مسيرتها ما قد يعترضها أحيانًا من فتن واضطرابات سياسية ناتجة عن تقلب تبعيتها من حكم إلى آخر .

٢ـ مدينة جني :

تقع مدينة جني إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو ، وكانت أرضها خصبة ، وكما تذكر بعض المصادر فإن طبيعة أهلها القائمة على التراحم والتعاطف والمساواة جذبت الناس إليها ، وخاصة القوافل التجارية من أرجاء

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٠، ٢٢١) .

(٢) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (ص١٣٠) ، كذلك علي محمد عبد اللطيف ، (ص١٠٢ ، ١٩٤) .

البلاد ، مما هيأ لها أن تصبح سوقًا عظيمة من أسواق السودان الغربي ، يلتقي عندها تجار الملح القادمون من مدينة تغازة ، مع تجار الذهب الآتي من مناجم بيط ، وهما معدنان كانت لهما قيمة اقتصادية كبيرة في ذلك العهد [١] .

ولهذا كانت جني ، قبل الإسلام ، مزدهرة بتجارتها وأسواقها المتنوعة ، وكانت لها صلات مع شمال القارة ؛ إذ كانت همزة الوصل لتبادل الصلات بين المغرب والجزائر ، وبين كل ما يأتي من أفريقيا الجنوبية [٢] .

ومع أن جني قد ارتبطت بمدينة تمبكتو في ازدهارها التجاري ، حيث كانت البضائع تحمل إليها من الأخيرة ، التي أصبحت لها أهمية تجارية كبرى في القرن الثاني عشر الميلادي ، مما وضع مدينة جنى في المرتبة الثالثة بعد تمبكتو وجاو ، إلا أنها من الناحية الحضارية احتلت المركز الثاني ، بعد تمبكتو ، من حيث الأهمية ، وذلك لكونها جمعت بين الأهمية التجارية والثقافية ، في نطاق المدن الإسلامية ، التي قامت على الطرق التجارية العابرة للصحراء الكبرى [٣] .

تبوأت جني مكانة عظيمة بعد دخول الإسلام إلى القارة الأفريقية ، وأصبحت من أهم المراكز الإسلامية في غرب أفريقيا المنافسة لتمبكتو ، بدأ نجم جني يتألق في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، حيث شهدت المدينة نهضة ثقافية قامت في بدايتها على أكتاف التجار المسلمين ، ثم أتى إليها العلماء والفقهاء من شتى القبائل والبلاد ، فضمت بين جنباتها كثيرًا منهم ، أمثال العالم موري ماجانا الذي كان يتولى التعليم والإشراف عليه في مساجد المدينة ،

---

(١) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (٢١٨، ٢١٩) .

(٢) جبريل أبو بكر ، مصدر سابق ، (ص١٧) .

(٣) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (٢٢١) .

في القرن الخامس عشر ، وكان يعلم الفقه والتفسير [١] ، والشيخ محمد ساخو ، الذي كان عالمًا فقيهًا عابدًا ، ولاه السلطان السنغالي أسكيا الحاج محمد قضاء المدينة ، فأخذ يفصل بين الناس في قضاياهم ، وفق الشريعة الإسلامية ، وينشر الدعوة الإسلامية بين أتباعه ، والقاضي محمود بن أبي بكر ، والقاضي محمد سانو ، وغيرهم كثيرون [٢] .

ولم يكن نشاط مدينة جني التعليمي والثقافي يختلف عما كانت تقوم به المراكز الحضارية الأخرى في أفريقيا ، فجني بلغت في المجال الثقافي مكانة لم يسبقها فيها سوى تمبكتو التي كانت عاصمة السودان الثقافية ، وهكذا رسخت في مدينة جني التجارة ، والمعارف ، وأصبحت مركزًا تنتشر فيه على الدوام ثقافات البلدان المطلة على البحر الأبيض المتوسط إلى المناطق المحيطة بها [٣] .

٣ـ كانو :

تمثل كانو أولى إمارات الهوسا [٤] ، وكان باجودة (٩٩٩ ـ ١٠٦٣) أحد أحفاد بايزيدا ، أول ملوكها ، وأعقبه ثمانية وأربعون من الملوك ، وكانت إذ ذاك تشغل مساحة صغيرة ، وقد شيدت أسوارها القديمة من اللبن ، حوالي القرن الثاني عشر ، أثناء حكم ملوكها الثالث والرابع والخامس ، وكانت

---

(١) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (ص١٣٣) .

(٢) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص٢٢١) ، كذلك عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (٢٢٤) .

(٣) بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ط١ ، ترجمة : الهادي أبو لقمة ، محمد عزيز ، بنغازي ، منشورات جامعة قاريونس ، ١٩٨٨ ، (ص٢٣٣) .

(٤) كلمة هوسا تطلق على الأهالي واللغة التي يتكلمون بها والبلاد التي تشملهم ، عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص١٩٣) .

الكلمة النافذة في أزمانهم لصناع الحديد [١] .

دخل الإسلام كانو حوالي القرن الثالث عشر ، وكان الإسلام قد دخل إلى مالي ووادي النيجر قبل ذلك ، على يد قبائل الونقارة ، الذين ربما كانوا من الفولة الوافدين من مالي ، وجلبوا معهم عقيدتهم الجديدة ، فاعتنقها أهل كانو في سلام ، ويقول المصدر نفسه : إن الزعيم الذي دخل الإسلام في عهده إلى كانو كان اسمه «ياجي» ، ومن ثم شيدت المساجد ، وازداد عدد الذين يعتنقون الإسلام [٢] .

امتدت الثقافة الإسلامية إلى كانو وكاتسينا في القرن الخامس عشر ، حيث رحل إليها بعض علماء تمبكتو للقضاء والإرشاد ، ويقال : إن السيوطي رحل إلى شمال نيجيريا وأقام في كاتسينا فترة من الزمن يعلم ويرشد الناس ، ثم عاد إلى مصر سنة ٨٧٦هـ ، ١٤٧١م [٣] .

وقد تضاعفت شهرة كانو بعد ضعف مدينة تمبكتو ، وظهر هذا في عهد محمد رنقة أشهر ملوك كانو (١٤٦٣ ـ ١٤٩٩) ؛ إذ شاع الأمن والطمأنينة في البلاد ، وقرب إليه العلماء ، ووفد في عهده إلى كانو علماء من مصر ، كما استقدم رجال الدين لإرشاد الناس وهدايتهم ، وشيد المساجد ، ووجدت التقاليد الإسلامية طريقها إلى الحياة في كانو ، فتمسك المسلمون بالدين بكل إخلاص .

وفيما يخص تدريس العلوم الإسلامية في كانو ، فقد كان المهاجرون يقومون

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص١٩٣، ١٩٤) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٩٤) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص٢٢٥) .

بهذا العمل ، فهم يحفظون القرآن الكريم ، ويلمون باللغة العربية ، وكانت المدارس في كانو يشرف عليها فقهاء ، ويلحق بها الأطفال في سن مبكرة ، حيث يتعلمون في هذه المدارس ساعة قبل شروق الشمس ، وساعة قبل غروبها ، حتى يستطيعوا مساعدة ذويهم في أعمالهم .

أما المناهج الدراسية فكانت تقوم على نشر الدين الإسلامي وتعليم فرائضه وتلاوة القرآن وحفظه وتفسيره بالعربية أو باللغة القومية المحلية ، أما تلاميذ المرحلة العليا فكانوا يتلقون دروسًا في الحديث والفقه والتوحيد [١] .

لا تزال مدينة كانو تعتبر من أهم مراكز الإشعاع الإسلامي في غرب أفريقيا ، وبها مدرسة للعلوم العربية وأخرى للقضاء الشرعي [٢] .

٤ ـ كانم ـ برنو :

يقول بعض المهتمين بتاريخ أفريقيا : إن الدول الأفريقية التي قامت في المنطقة لم تكن لها ، في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، لغة رسمية مكتوبة ، ولكن مع انتشار الإسلام في تلك المناطق ، بدأ تاريخ أفريقيا يتشكل ، وكان من الطبيعي ، والأمر كذلك ، أن تتأثر الدول الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد وغيرها من الممالك الإسلامية في شرق أفريقيا وغربها باللغة العربية والحضارة العربية ، خصوصًا في الفترة التي تلت دخول الإسلام إلى تلك الممالك [٣] ، حيث دخل الإسلام إلى كانم ـ برنو ، على يد المسلمين الأوائل ، حوالي سنة

---

(١) حسن إبراهيم ، مصدر سابق ، (ص٢٢٥) .

(٢) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص١٩٥ ، ١٩٦) .

(٣) سعيد عبد الرحمن الحنديري ، الممالك الإسلامية في منطقة بحيرة تشاد ، مجلة البحوث التاريخية ، ع١ ، س٢٢ ، يناير ٢٠٠٠ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص١٨٧) .

٤٦ هجرية ، وهي السنة التي وصلت فيها طلائع المسلمين بقيادة عقبة بن نافع إلى إقليم كاوار ، حيث كان قد سلك الطريق الذي يربط كانم بساحل طرابلس مباشرة ، وقد مثل هذا الطريق قناة يتدفق من خلالها التأثير الإسلامي المبكر إلى كانم ـ برنو ، وإلى مناطق أخرى في السودان الأوسط .

وعلى الرغم من أن تأثير الإسلام في كانم ـ برنو قد بدأ مبكرًا ، منذ القرن السابع الميلادي ، إلا أن قيام حكم إسلامي لم يحدث إلا في القرن الحادي عشر الميلادي .

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت كانم ـ برنو أن تؤسس علاقات ثقافية مع شمال أفريقيا ومصر ، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي ، وذلك بما أتاح أداء فريضة الحج من اتصال مع هذه البلاد ، ولتعزيز هذه الصلة بذل حكام كانم ـ برنو جهودهم في القرن الثالث عشر الميلادي لإنشاء الروابط الثقافية والدبلوماسية مع طرابلس ومراكش وغيرها ، مما ترتب عليه مساهمة علماء المراكز الثقافية الإسلامية في كل من القاهرة وفاس وتونس في نشر المعرفة الإسلامية في كانم ـ برنو وغيرها من مناطق السودان الأوسط ، فقد ظل العلماء الزائرون يقومون بمهمة كبرى في نقل التعليم والثقافة العربية الإسلامية ، كما أن تدفق الكتب والمؤلفات الأدبية من شمال أفريقيا كان قد أدى إلى انتشار الدراسات العربية وتعميقها [١] .

وجدير بالذكر أن الكانميين تمذهبوا بمذهب الإمام مالك ، فبنوا مدرسة للمالكية ، اتخذوها مركزًا للثقافة العربية [٢] .

---

(١) كاني ، مصدر سابق ، (ص١٣، ١٥) .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، مصدر سابق (ص١٣١) .

وهكذا يمكن القول : إنه ، بفضل الإسلام ورجاله ، ومساهمة هؤلاء العلماء ، بلغ التعليم الإسلامي في كانم ـ برنو مستوى رفيعًا من التقدم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، فتوطدت الثقافة العربية الإسلامية ، وحرص حكام البلاد على توقير العلماء ووضعهم في مكانة ممتازة ، فأصدروا المراسيم التي تجعل الشخص العالم وولده وماله حرامًا لا تمس بسوء طيلة حياته ، وامتد هذا التكريم إلى العلماء الوافدين من الشمال أو الشرق ، فارتفع شأن العلماء ، من أمثال القاضي محمد بن الحاج أحمد ، والإمام طاهر بن إمام الحاج ، وعبد القادر الحاج وغيرهم [١] .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما بلغته مكانة العلم والعلماء في نفوس حكام كانم ـ برنو .

ولابد ، في هذا السياق ، من أن ننوه إلى وجود مراكز إشعاع إسلامية أخرى ، ساهمت في إضاءة جنبات القارة الأفريقية ، ولو بقدر أقل ، مثل مدينة غانه أو كومبي عاصمة إمبراطورية غانا ، التي كان بها اثنا عشر مسجدًا ، وعاش فيها كثير من العلماء ورجال الدين والأدب والطلاب ، وكانت العربية لغة التدوين في جميع أرجاء البلاد [٢] .

وكذلك مدينة أودغست الواقعة في شمال غرب أفريقيا ، التي كان بها مدارس ومساجد [٣] ، وهناك أيضًا مدينة جاو التي ظلت عاصمة لإقليم سنغاي ، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، عند اتصاله بوادي

---

(١) عبد الرحمن زكي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٦) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص٧٧، ٧٨) .

(٣) المصدر نفسه ، (ص٩٠) .

تلمس ، منحدرًا إليه من وسط الصحراء الكبرى ، فقد اشتهرت هذه المدينة بالنشاط السياسي والتجاري أكثر من النشاط الثقافي ، لقلة من وجد فيها من الأساتذة وطلاب العلم ، مقارنة بمدينتي تمبكتو وجني .

إضافة إلى ذلك كان ثمة مراكز أخرى ذات نشاط أقل مستمد من نشاط المدن الكبرى ؛ مثل ولاته وداندي وتغزة وغيرها [١] .

كما تجدر الإشارة إلى مراكز إسلامية أخرى قامت بدور لا يقل أهمية عن دور المراكز التي سبق ذكرها ، وهي الأربطة [٢] ، والزوايا ، التي قامت بنشاط علمي أساسه نشر الدين الإسلامي ولغته ، وقد قامت الأربطة في شمال أفريقيا في الصحراء الواسعة الممتدة التي تفصل الشمال عن الجنوب ، والتي تمتد من المغرب الأقصى حتى مدينة الإسكندرية ، وكانت من الأماكن التي شهدت نشاطًا علميًا وثقافيًا ؛ إذ تم من خلالها تلقين العلوم الإسلامية ونشرها داخل القارة ونسخ المصاحف ، وكتب الفقه والحديث ، فكان يوجد بداخل الرباط دارًا للكتب تودع فيها النسخ الأصلية لمؤلفات العلماء للرجوع إليها عند الحاجة ، وتولى المرابطون نسخ المؤلفات النادرة بأعداد وفيرة لتوزيعها على طلاب العلم الوافدين من غرب أفريقيا ، كما كان بالرباط حوانيت الوراقين ، وقسم لصناعة المداد وأدوات الكتابة والورق [٣] .

ولعل أقدم الأربطة الصحراوية في شمال أفريقيا وغربها والمغرب الأقصى

---

(١) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص٢٢٢) .

(٢) الرباط : كلمة تعني حراسة الحدود وحمايتها من غارات الأعداء ، ثم اتخذ الرباط مستقرًا للعلماء والزهاد .

(٣) فضل كلود الدكو ، مصدر سابق ، (١٤٠، ١٤١) .

هو رباط قصر طرابلس ، والذي أسس حوالي ١٨١هـ ، ٧٩١م ، وقد امتدت الأربطة بعد ذلك حتى بلغت نهر السنغال ، وانتشرت في الصحراء الكبرى وفي الواحات الجنوبية [١] .

أما الزوايا فاعتبرت من أهم وسائل انتشار الإسلام ومن معاهده ، فهي تطلق على المكان الذي يتخذه المتصوفة لترويض النفس وتربيتها على الخلق الإسلامي القويم ، وقد كانت في بادئ الأمر أمكنة للعبادة ، وبمرور الزمن اتسع مفهومها حتى صارت تقوم بما تقوم به المدرسة في البلاد التي لم تكن بها مدارس ، ومع نشوء الطرق الصوفية انتشرت الزوايا في البلاد كمراكز لتلك الطرق ، وكان بعض هذه الزوايا تقع على طرق القوافل التجارية المارة وسط الصحراء الكبرى [٢] .

كان أصحاب الزوايا في غرب أفريقيا ، يقومون بنشر الإسلام بين سكان أفريقيا وتعليمهم مبادئه ، وتحفيظهم شيئًا من القرآن الكريم وعلوم الفقه والحديث وتلقينهم قواعد الدعوة لهذا الدين ، ثم إرسالهم إلى داخل القارة كدعاة للإسلام ولتعليم اللغة العربية لمن يعتنقون هذا الدين [٣] .

وهكذا يتضح أن الأربطة والزوايا كانت من المعالم الدينية ومراكز تعليمية ساهمت من خلال نشاطها العلمي والثقافي في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية في أفريقيا .

---

(١) المصدر نفسه ، (ص١٤٢) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٤٤) .

(٣) المصدر السابق ، (ص١٤٦) .

ثالثا : تأثير التعليم والثقافة العربية والإسلامية في الشخصية الأفريقية :

العرب أمة ذات عطاء وقدرة ، ومنذ أن برزت إلى الوجود وهي على موعد مع التاريخ في صناعة الأحداث الكبرى ، التي حملت تغييرات نوعية في الحضارة الإنسانية ، وتاريخ الإنسان لا يتعلق بالأصل والكيان وحسب ، بل يشمل التفاعل والتأثير المتبادل .

وثقافة كالثقافة العربية الإسلامية كان لابد لها أن تتمتع بجملة من الخصائص ، تمنحها القدرة على التأثير والانتشار والاستمرارية ، وليس ثمة أي ضرورة لاستعراض ماضي الثقافة العربية الإسلامية ، ولكنا نتبين من خلال ذلك الماضي الخصائص العامة ، التي تتلخص في المرونة والشمول والتطور والعالمية والحيوية والإيمان والولاء للإسلام وعقيدته ، إلى جانب نزعة التسامح والنزعة السلمية والنزعة العلمية والنزعة العقلية ، والشورى واللغة العربية ، التي تتجلى من خلالها الحضارة العربية الإسلامية ، باعتبارها الوسيلة الأساسية للتعبير عن نفسها ، من خلال تراثها العلمي والأدبي والفني ، كما تتصف الثقافة الإسلامية بالأصالة والأمانة ، ولهذا فهي صالحة لكل زمان ومكان [١] .

لذلك ارتبطت الشعوب الأفريقية بالثقافة العربية روحًا ومضمونًا ، وكونها وجدت في الثقافة العربية الثقافة الحليفة والمكملة لثقافتها ، بل أغنتها وطورتها ، ولم تكن الثقافة العربية يومًا بديلًا للثقافة الأفريقية ، كما فعل المستعمرون

---

(١) شاكر مصطفى ، عالم الثقافة المختلفة ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٩ ، ع١ ، أبريل ، مايو ، يونيو ١٩٨١ ، الكويت ، وزارة الإعلام ، (ص٣٢، ٣٣، ٣٤) .

الأوروبيون [١] ، فالإسلام وإن كان قد استوطن كل قطر أفريقي ، وأصبح جزءًا من التراث الأفريقي ، إلا أنه لم يمح الشخصية المعنوية التي اعتنقته ، بل احتفظت تلك الشخصية بكيانها [٢] .

وإذا أردنا أن نتناول تأثير التعليم والثقافة الإسلامية في الشخصية الأفريقية ، فلابد أن نذكر أن هذا التأثير ما كان له أن يحدث لولا وجود الإسلام وثقافته وانتشاره في أفريقيا ، فما حدث في أفريقيا من انتشار للتعليم وللثقافة العربية الإسلامية ، من خلال المراكز الحضارية التي توزعت في شتى أنحاء القارة ، ما هو إلا ثمرة أو نتيجة لدخول الإسلام وتغلغله في القارة الأفريقية .

ولهذا فإن التحول أو التغيير الذي طرأ على الشخصية الأفريقية يتضح أساسه جليًا من خلال تجربة الإسلام في بناء الشخصية الحضارية ، وقد انطلق الإسلام في بناء تلك الشخصية من خلال مكونات تعتبر أساسية في إيجاد الشخصية الحضارية ، حيث تتمثل هذه المكونات في : الإيمان والعبادة والصلاة والزكاة والصوم والحج والأخلاق والثقافة والشعور بالمسؤولية [٣] .

وتشير هذه المكونات في مجملها إلى مسألة مهمة عني بها الإسلام ، ألا وهي التربية ، فالتربية عملية اجتماعية تستمد خياراتها الأساسية من القيم السائدة في المجتمع ، ومن البديهي القول بأن للتربية علاقة وثيقة بالمجتمع الذي تقوم

---

(١) حميد دولاب ضيدان ، مصدر سابق ، (ص١٣١) .

(٢) المصدر نفسه ، (ص١٠٤) .

(٣) مجاهد شعبان ، الإسلام وبناء الشخصية الحضارية ، مجلة نهج الإسلام ، ع٤٤ ، (ص١٢) ، حزيران ١٩٩١ ، سوريا ، وزارة الأوقاف ، (ص١٤٠ـ ١٤٥) .

فيه ، كما أنها تعتبر وسيلة من وسائل تشكيل الوعي الفردي والجماعي [١] ، ولهذا كان لابد لمجتمع كالمجتمع الأفريقي ، انتشر فيه الإسلام وثقافته ، أن يتكيف مع مجموعة القيم السائدة فيه ، وأن يبدأ باتخاذ نهج جديد لحياته يتماشى مع أساسيات بناء الشخصية الحضارية ، وهذا ما حدث ، فقد استجابت الفطرة الأفريقية لهذا الدين ، وأبدت قبولًا لتعاليمه ومبادئه ، وهو ما نتج عنه ظهور نمط جديد من المجتمع ، جمع بين القيم الإنسانية الأفريقية ، وثقافات أبناء المنطقة وحضارتهم ، وبين النبع الثقافي والحضاري الأصيل للإسلام [٢] .

فإذا كان الإنسان الأفريقي قد استجاب لهذه النقلة الحضارية ، وشهد حالة من الازدهار العلمي والثقافي أثرت إيجابيًا على شخصيته ، فإن ذلك يعود لعدة عوامل يسرت له عملية استيعاب ما جاءت به الثقافة العربية الإسلامية من مفاهيم حضارية مختلفة ، نذكر من هذه تلك الخصائص والسمات التي اشتمل عليها الإسلام ، وقد سبقت الإشارة إليها ، إلى جانب الكيفية التي تم بها نشر الإسلام ، كما لابد أن نشيد بإيجابية الحكام والسلاطين تجاه النشاط العلمي والثقافي في بلادهم ، كذلك كان من العوامل المهمة في هذا الصدد وجود العلماء والفقهاء المقيمين والزائرين الذين عملوا على نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية بين أبناء القارة ، بالإضافة إلى وجود المراكز الإسلامية المنتشرة في ربوع البلاد ، كالمساجد التي كانت بمثابة اللبنة الأساسية في

---

(١) سعاد هاشم قصيبات ، دور التربية في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في أفريقيا ، أعمال مؤتمر التعليم ٣٨ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٣٧٨) .

(٢) فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص١٨٤) .

المجتمع الإسلامي ، ولكونها دورًا للعبادة وللتثقيف والتعليم والتوجيه [١] ، والمدارس والجامعات والأربطة والزوايا .

فإذا نظرنا إلى هذه العوامل ومدى الفعالية التي أسهمت بها في تغيير نمط حياة وسلوك الإنسان الأفريقي ، نجد أن مؤشرات أو علامات التحول في شخصيته قد برزت في مجال المعتقدات والسلوك وفي مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما هي الأداة أو الوسيلة التي تحقق بها هذا التحول أو التبلور في الشخصية الأفريقية ؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول : إن التعليم والثقافة العربية الإسلامية كانا الوسيلة المؤدية إلى هذا التحول ، فقد لعب التعليم والثقافة دورًا مهمًا في حياة الإنسان الأفريقي ، حيث وسعا إدراكه لأوضاعه ، وأسهما في بناء شخصيته والارتقاء بسلوكه الإنساني ، في مجال التعامل مع محيطه الخارجي ، ومعلوم أنه لا يمكن الفصل بين التعليم والثقافة ؛ إذ إن التعليم جزء من الثقافة ، ومن ثم فهما يعملان معًا على خلق حالة من الانسجام بين الإنسان وذاته وبينه وبين أبناء مجتمعه [٢] .

هذه الحالة من العلاقة بين الشخصية والثقافة ونظام القيم الذي منح دلالته لطرق السلوك المقبولة ، تضع يدنا على أساس العلاقة بين اللغة والسلوك ،

---

(١) جميلة محمد التكتيك ، مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الأسكيا محمد الكبير ، ١٤٩٣ ، ١٥٢٨ ، ط١ ، طرابلس ، مركز جهاد الليبيين ، (ص١٨٠) .

(٢) حسن علي صالح الزين ، التعليم والثقافة من أجل التقارب والوحدة والتحرر في أفريقيا ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج٣ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص١٩٠) .

فالتعليم والثقافة العربية الإسلامية منبثقان من الإسلام ، وهذا التلازم أوجب على الإنسان الأفريقي ، كي يحسن إسلامه أن يتعلم لغة هذا الدين ، لكي يفهم المعاني والمبادئ التي جاء بها الإسلام ، ثم يندرج في دراسة العلوم المرتبطة بهذا الدين ولغته ، لكي يلم بكل ما له علاقة بالتراث الإسلامي ، من هذا المنطلق ، أو على هذا الأساس ، كانت الثقافة العربية الإسلامية ، تعنى للإنسان الأفريقي الإيمان بالله وبأهمية وضرورة العمل الصالح في الدنيا ، وبالحساب والجزاء على ذلك في الآخرة ، وتحكيم شريعة الله في شؤون الحياة ، وعدم استبعاد عنصر الدين عن الحياة ، والتوفيق بين العلم والدين من جهة ، وبين العلم والحياة من جهة أخرى ، والارتباط بالمنابع الأساسية للفكر الإسلامي ، بما في ذلك منبع أو مصدر الاجتهاد الفقهي ، الذي يعترف بالتجدد والتطور في حياة المجتمع وفي حاجاته ومشكلاته وقضاياه ، إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة المستمدة من القيم الإسلامية والإنسانية الثابتة [١] .

فإذا كان مفهوم الثقافة العربية الإسلامية ، عند الإنسان الأفريقي ، يعني كل ما تقدم ، فالنتيجة كانت غرس نموذج حضاري ، ورصيدًا من المفاهيم المختلفة ، أعاد بها الأفريقي بناء كيانه في ظل هذه المستجدات .

لقد حقق التعليم والثقافة العربية الإسلامية مجموعة من الفوائد والنتائج الإيجابية ، مما كان له تأثير على الذات الأفريقية ، وقد تجلت فيما يلي :

١ــ ترسيخ القيم الدينية والخلقية والارتقاء بالإنسان الأفريقي دينيًا وخلقيًا .

---

(١) عمر التومي الشيباني ، دور التعليم في تأكيد الأصالة الثقافية الأفريقية ، أعمال مؤتمر التعليم ، ج١ ، سبها ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية ، ١٩٨٨ ، (ص٤٥٥ ، ٤٥٦) .

٢ـ الحفاظ على الهوية الأفريقية المتميزة في عاداتها وتقاليدها التي لا تتعارض مع روح الإسلام .

٣ـ الاعتزاز بالانتماء لثقافة عربية إسلامية توفر الأساس للعمل والإبداع والابتكار .

٤ـ عدم الجمود والانطواء على الذات ، بل التفتح على ثقافات الغير ، واختيار النافع منها والتفاعل معها .

٥ـ خلق الإنسان الباحث والدارس والمعلم في الوقت نفسه .

٦ـ تربية الإنسان الأفريقي ، عن طريق توسيع مداركه الفكرية وملكاته الروحية ، للارتفاع به إلى مستوى المعارف والعلوم التي تربطه بالعقيدة الإسلامية وبحياته في إطار المجتمع الذي يعيش فيه ، أو يتعامل معه ، عبر الظروف والزمان والمكان [١] .

ولو نظرنا إلى جانب آخر في حياة الإنسان الأفريقي ، فسوف نجد تبدلًا قد طرأ عليه ، بفعل الأثر العظيم الذي أحدثه الإسلام وثقافته في وسط القبائل الأفريقية ، إذ اكتسب الإنسان الأفريقي نظرة جديدة إلى الحياة والعلاقات الاجتماعية ، كما تخلى عن الكثير من العادات والطباع البدائية ، وهجر حياة العري أو شبه العري بارتداء الملابس ، كما حدث عند القبائل الزنجية والأهالي الذين لم يكونوا يغتسلون من قبل ، بدأوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ، وصاروا يتأنقون في ملابسهم ؛ لأن الإسلام يأمر بالنظافة على الدوام ، كما قلت الجريمة في أوساط تلك القبائل ، وقلَّ السلب والنهب

(١) المصدر السابق ، (ص٤٦٩) وما بعدها .

والاعتداء على بعضهم البعض ، وبدأ الناس يأمنون على حياتهم وأملاكهم ، وتخلصوا كذلك ، بواسطة الإسلام ، من ظاهرة وأد الأطفال ، حيث كانت القبائل الزنجية تعتبر الأطفال الذين يولدون في ظروف شاذة أو لحقهم تشويه ، خطرًا يهدد المجتمع [١] .

ولم يقف تأثير التعليم والثقافة العربية الإسلامية على الشخصية الأفريقية عند هذا الحد ، فإننا نجد شعبًا ـ كشعب سنغاي مثلًا ـ في عهد أسكيا محمد ، قد تحلى بالأمانة والشرف في معاملاته المختلفة ، واتصف بالعناية الشديدة بحفظ القرآن الكريم ، وعدم التفريط في أداء الفرائض ، من صلاة وزكاة وصوم وحج ، واحترام الكبار وتوقيرهم ، وغير ذلك من الصفات ، كإلزام المرأة بالاحتشام في اللباس عند خروجها من المنزل ، والاهتمام بنظافة وأناقة اللباس ، والالتزام بحضور المناسبات الدينية المختلفة ، كالأعياد وصلاة الجمعة ، والمولد النبوي الشريف ، ومواكب الحجاج ، وغيرها من المناسبات الاجتماعية العديدة [٢] .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الانسجام الذي حدث بين الإنسان الأفريقي وبين ثقافة وقيم الإسلام ، التي استطاع أن يتعاطى معها من خلال التعليم العربي الإسلامي ، مما انعكس بدوره على سلوكه الخاص والعام .

يلاحظ مما سبق ، أنه كان للتعليم والتربية الإسلامية دور بارز في تغيير نمط حياة الإنسان الأفريقي ، وتطوره وتقدمه في كافة جوانب حياته ، الثقافية

---

(١) حميد دولاب ضيدان ، مصدر سابق ، (ص١٠١) .

(٢) جميلة محمد التكيبتك ، مصدر سابق ، (ص١٩٨ ، ١٩٩) ، كذلك فاي منصور علي ، مصدر سابق ، (ص١٨٤ ، ١٨٦) .

والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وهي كلها جوانب مترابطة ومتداخلة ومتفاعلة فيما بينها ، ويؤثر بعضها في بعض ، ويتداخل بعضها مع بعض ، فالجانب الثقافي بمعناه العام يشمل الجانب الاجتماعي وباقي الجوانب الأخرى ، وهكذا يمكن القول بالنسبة للجانب الاجتماعي الذي يشمل أيضًا في مفهومه العام الجانب الثقافي وكذلك الجوانب الأخرى ، ولهذا لا يمكن إنكار دور التعليم والتربية النابعة من الثقافة العربية الإسلامية في بلورة الشخصية الأفريقية ، والتحكم في ثقافتها ، وتوجيهها نحو اتجاهات جديدة ، مستمدة عناصرها من ثقافة أصيلة تؤمن بالدين والعقل ، قابلة لإبراز المبادرات الإبداعية والابتكارية وقادرة على تفهم ثقافات الغير والاستفادة منها .

كل هذه المزايا وغيرها المتأصلة في الثقافة العربية الإسلامية استطاعت المراكز الحضارية في القارة الأفريقية أن توجه العناية إليها ، وأن تجعل غرسها في الشخصية الأفريقية هدفًا أساسيًا من أهداف دورها التعليمي والثقافي ، وأن تبذل كل الجهود الممكنة لتنمية الذات الأفريقية وتطويرها لإيجاد تناسق وانسجام بينها وبين الحضارة العربية الإسلامية ، حتى تضمن لها البقاء والاستمرار .

*****